

بحوث سياسية

تصدرها
الجمعية المصرية للعلوم السياسية

البحث السابع

معالم ثورتنا الثقافية في مجتمعنا الاشتراكي

بقلم
الدكتور عبد القادر حاتم



بحوث سياسية

تصدرها
الجمعية المصرية للعلوم السياسية

البحث السابع

معالم ثورتنا الثقافية في مجتمعنا الإشتراكي

بقلم
الدكتور محمد عبد القادر حاتم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لاشك أن الثقافة تتأثر الى حد كبير بواقع الحياة التى تعيش فيها بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولقد قامت الثورة فقضت على الماضى ، وظهرت مفاهيم وقيم ومثل عليا كانت مفتقدة ... وتغير وجه الحياة الكالح ... الى وجه بسام مشرق بالأمل ..

ولقد جرى كثير من الناس على تصور «الثورة» من خلال مفهوم ضيق ، بقصرها على

المجال السياسى وحده ويعتبرها مجرد تغيير جذرى فى الأوضاع السياسية للجماعة .

وجرى آخرون على توسيع هذا المفهوم قليلا ليشمل التغيير الجذرى فى العلاقات الاقتصادية .. ، وعبروا لذلك عن الثورة التى تشمل المجالين السياسى والاقتصادى ، بالثورة الكلية أو الشاملة .

والواقع أن الثورة لا يمكن أن تكون كلية أو شاملة اذا هى اقتصرت على تناول هذين الجانبين **لان المشكلة الحقيقية للثورات وللحضارات وللنظم،انما هى مشكلة (الانسان).. بكل جوانبه وحاجاته واهتماماته . هذا الانسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى فى اكثر من موضع : ((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)) .**

فالله تعالى يقرر كرامة الانسان على جميع الكائنات التى تعيش على ظهر الارض ، بل ان الكرامة حق لكل انسان ملازم لانسانيته ، بحيث اذا حرم منها يفقد المجتمع الذى يعيش

فيه تماسكه وسعادته .. كما رفع الله منـزلة الانسان على منزلة الملائكة « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا .. »

فالانسان بهذه المثابة اكرم المخلوقات قاطبة، بما يتميز به من روح وعقل وارادة .. الى جانب وجوده المادى ... فقد تهبط به نفسه فينـزل عن مستوى الحيوان .. وقد ترقى به انسانيته فيسمو عن درجات الملائكة .

«ونفس وما سواها فالهمهافجورهاوتقواها. قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

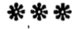
من أجـل ذلك فاننـا نحن العرب لنـا فى الانسان تصورنا الخاص نؤمن معه بأن لهـذا الانسان الى جانب المشـاكل والاحتيـاجات الاقتصادية والمادية ــ على أهميتها الكبرى ــ احتياجات أخرى نفسـية وروحيـة وفكـرية **ونعتقد كما قال السيد المسيح عليـه السـلام أنه :**

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ... »

ومن هنا لم يكن غريبا ونحن لم نزل فى أول

الطريق الطويل الذى رسمناه لأنفسنا لتحقيق النهضة الاقتصادية والاجتماعية الكبرى أن نمد تطلعاتنا الثورية وأن نلقى بجزء من طاقاتنا الثورية الخلاقة الى ميدان الثقافة والفكر من الانسان .

واذا كانت الثقافة تعبيرا عن فكر الشعب من أجل حياة حرة كريمة كما قال السيد الرئيس ، فان التنمية الثقافية ، أو الثورة الثقافية بمدلولها الأعم هى احدى الجوانب الرئيسية فى ثورتنا الانسانية الشاملة التى اعترف لها بهذا الوصف عالم ومؤرخ معاصر يشهد الجميع بالقيمة الكبرى لشهادته وهو المؤرخ الانجليزى : «أرنولد توينبى» ، حيث قال : « ان ما رآه فى الجمهورية العربية المتحدة انما هو ثورة انسانية عالمية » ..



الثقافة والثورة

ان الثورة تعنى أولا وقبل كل شيء تحـولا أساسيا فى الاتجاه الفكرى العام،والا لن تكون ثورة على الاطلاق . وهـذا التحـول الذى يستهدف احلال نظام سياسى أو اجتماعى محل نظام آخر يعنى أن النظرة الى الحياة والىقيمها ومقوماتها ، قد تغيرت بدرجـة أصـبح من الضرورى معها قيام نظام جديد فى جوهره أو فى صورته ، أو جديد فيهما معا . ولذلك فمن الضرورى أن نناقش جذور الاوضاع الثقافية على ضوء التطورات التى تجتازها المجتمعات البشرية .

واذا كنا نلمس الرابطة القوية بين ثقـافة الانسان كفرد وكعضو فى مجتمع وبين أسلوبه فى الحياة فان هذه الرابطة تبدو أوضح ماتكون فى المجتمعـات التى تجتـاز مرحـلة التحول الثورى ، ونستطيع أن نضرب مثلا بسيطا على

ذلك بمرحلة ظهـور الاسـلام فى تاريخ الأمة العربية ومرحلة الثورة الفرنسية فى التـاريخ الأوربى .

وليس ما نريده هو أن نؤكد أهميةالجانب الثقافى فى مراحل التحول الثورى فحسب، ولكن أن نلقى الضوء على الوضع الراهن لثقافتنـا القومية كجزء جوهرى من الحياة التى تعيشها الجماهير العربية من المحيط الى الخـليج فى مرحلة تميزت بتغيرات سريعة متلاحقـة تعيـد تشكيل الحياة فى هذه المنطقة .

ولا جـدال فى أن الثقـافة لا تصـطنع اصطناعا ولا تفرض فرضا ، ولكنها يمكن أن تتأثر تأثرا ايجـابيا بنـوع من التخطيـط أو استيضاح الرؤية يستهدف اتاحة الفرص للنمو الطبيعى للثقافة القومية وسيرها فى طريق سليم بعيد عن التحكم وبعيد أيضـا عن الانحـراف الذى يمكن أن يصيبها .

***

التخطيط الثقافى وأهدافه

اذا كان لرجال السياسة وكتابها أن يختلفوا حول أقصر الطرق وأقوم المناهج لتحقيق الثورة فى الميدانين السياسى والاقتصادى فلا نحسب أنهم يختلفون حول الوسيلة التى تتحقق بها الثورة الثقافية . فهى وسيلة مستمدة من تجارب الانسان ، ومن الايمان بالعلم والاعتماد على مناهجه .

وتلك هى وسيلة التخطيط الذى لا يترك عملية التنمية للمصادفة والارتجال وتضارب المناهج والمشروعات ، ولا يترك الظروف والأحداث تخرج الثوار عن طريقهم المرسوم ، فتشتت جهودهم ، وتذهب بالطاقات المبذولة الى غير وجهة ولا غاية .. انما يعتمد على خطة علمية مدروسة تحدد الاهداف العامة للنشاط ، وترصد القوى المادية والبشرية التى ستنقطع لخدمة هذه الاهداف . كما تحدد لنفسها مراحل هذا التنفيذ بوسائل متابعته ، واعادة تقسيمه اولا فاولا ، حتى يتم تحقيق مراحل تلك الخطة ..

وتتجه ثورتنا الثقافية الى تحقيق هدفين كبيرين ، هما :

١ ــ توسيع قاعدة الثقافة من ناحية .

٢ ــ تعميق خطوط الثقافة ورفع مستواها من ناحية أخرى .

أولا :

فاما عن توسيع قاعدة الثقافة ، وبعبــــارة اخرى جعل الثقافة للشعب ، فهو هدف يجـــد مبرراته الفلسفية والسياسية فى حقيقتين :

اولاهما : أن الاستفادة بالتنمية الثقافيـــة حق أصيل للجماهير لا يجوز حرمانها منه واستئثار فئة قليلة من أصحاب المقدرة المالية به .

واذا كان المجتمع الاشتراكى هو كما نقول مجتمع الكفاية والعدل ،واذا كان من معانى العدل فيـــه أن توزع الثروة بمظاهرها كلها ، توزيعا عادلا بين المواطنـــين ، فان احتـــكار فئـــة

محدودة من المواطنين للثروة الثقافية، يعتبر عملا وموقفا مناهضا للاشتراكية ومتعارضا مع مفاهيمها الرئيسية .

ثانيتهما : أن الثقافة فضلا عن كونها حقا أصيلا للجماهير فانها المدخل الطبيعى الوحيد لاستقامة ونجاح التنظيمات السياسية والاقتصادية .

وجدير بنا أن نذكر فى هذا المقام باننا نقيم حياتنا السياسية والاقتصادية على أسس شعبية واسعة تشرك الجماهير فى الحكم والادارة والانتاج .

واننا لم نكتف بالدعوة الى اشتراكهم هذا، وانما ضمنا للعمال والفلاحين ـ وهم قاعدة البناء الشعبى ـ نصف المقاعد ـ على الأقل ـ فى المجالس الشعبية على اختلاف مستوياتها بما فى ذلك المجلس النيابى .

ولا يشك أحد فى أن الصورة النهائية لهذه التنظيمات ومدى النجاح الذى ينتظرها والكفاية التى ستؤدى بها تبعاتها ، كل ذلك

يتوقف فى النهاية على وعى الجماهير وثقافتها وتفهمها لحقوقها وواجباتها وتصورها الصحيح لكل ما يحيط بها من مشاكل السياسة والاجتماع والاقتصاد. وهى أمور يعبر عنها فى مجموعها بالثقافة .

ومن هنا نقرر فى وضوح اننا نحتاج الى تغيير جذرى لمفهوم الثقافة والمثقفين ومكانهما الطبيعى فى المجتمع الاشتراكى .

ذلك أن ارادة الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والموظف الصغير فى مكتبه ، ارادة كل هؤلاء واخوانهم فى أقاليم الدولة كلها قد صار لها اليوم مركز الثقل فى نظامنا كله ، وهى التى تحدد صورة القرارات الكبرى التى ستتخذها أجهزة الدولة فى كل شئون الحياة العامة .

ومن هنا تكون عزلة الثقافة عن هذه الجماهير جريمة لا تغتفر فى حق الشعب كله ، ويكون تزويد تلك الجماهير باكبر قدر ممكن (وفى اقصر وقت ممكن) من الوان الثقافة المختلفة ضرورة قومية عاجلة ..

ان المثقفين فى المجتمع الاشتراكى لا يمكن أن يكونوا طبقة بالمعنى المفهوم . وانما هم أهل خبرة وتخصص ، يقدر علمهم وفضلهم ، ويستخدمون لتوجيه الجماهير وتثقيفها . وعليهم فى الحقيقة تقع التبعة الكبرى فى اشاعة الثقافة، ورفع مستوى الوعى . **وقديما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :**

((لا يسال الجهال لم لم يتعلموا ، حتى يسال العلماء لم لم يعلموا)) .

ومن نتائج هذا أيضا أن فكرة الأدب للأدب والثقافة للثقافة لا يجوز بحال من الأحوال أن تقف حائلا دون وصول هذا الزاد الثقافى ، الى جموع الشعب . **وليذكر الذين يسمعون منا هذا القول اننا لا نريد ان نقيد ارادة الكاتب أو نقتحم عليه مواهبه وملكاته وانما نريد ان يؤدى ضريبة هذه المواهب ، وان يصلها بالمبادىء والمثل التى يؤمن بها ، وأن يفىء بها على اخوانه المواطنين .** خاصة وان الثورة قد أوجدت حقلا خصبا للأدب البناء ، بتطبيقاتها العملية فى مراحل

الاشتراكية والحياة السياسية فضلا عن القاعدة الكبرى التى أوجدتها الثورة الثقافية فى وسائل الثقافة من الاذاعة المسموعة والمرئية والنهضة المسرحية وغزارة الكتب ، الأمر الذى أدى الى خلق سوق أدبية كبيرة تساعد الأديب على الانتاج المتواصل رغم ميل الأدب بطبيعته الى التأنى والتفكير . **وليذكر هؤلاء ايضا ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان من مناجاته لربه أن يستعيذ به من : ((من علم لا ينفع)) وكان يقول : ((ان من اوتى علما فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار)) . والله سبحانه وتعالى حينما اخذ الميثاق من العلماء اشترط عليهم قائلا : ((لتبيننه للناس ..))**

ان العلم للمجتمع يجب ـ كما يقول الميثاق ـ أن يكون شعار الثورة الثقافية فى هذه المرحلة ... على أن بلوغ النضال الوطنى لأهدافه يسمح لنا فى مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم ايجابيا مع العالم فى العلم للعلم ..

اننا نريد أن يدرك المثقفون جميعا ان المثقف المنعزل لا يخدم وطنه ، وان الخروج من العزلة

لا يعنى أن يلقى المثقف بعلمه الى الجماهير وهو بعيد عنها ، وانما نريدهم أن يدركوا تماما ، أن صورة المجتمع قد تغيرت ، وان الشعب الذى يجب أن يتصلوا به ويكتبوا له ويتحدثوا عن مشاكله ، ليس هو شعب القاهرة أو المدن الكبرى وبيئاتها الاجتماعية ذات الطابع الخاص، انما هو الشعب الذى يتكون منه جمهور هذه الامة ، هو مجتمع القرية ، مجتمع الحقل،مجتمع المصنع ..

وبغير الاتصال بهذه القاعدة الشعبية الكبرى ، وعرض مشاكلها والانفعال بواقعها وبسط الحلول لها ، لا تكون الثقافة قدخرجت من عزلتها .

وهذا يجرنا الى الحديث عن أسلوب العمل لنشر الثقافة فى الريف ، فان الوسيلة التقليدية للثقافة ، وهى الكتاب والجريدة ، لا يمكن أن تكون المدخل الفعال لتوصيل الثقافة الى أعماق القرى فى الريف . **ومن هنا كان توصيل هذه الثقافة الى الريف يقتضى عملية غزو ثقافى شامل تجند له كل اجهزة الاعلام والثقافة فى الدولة .**

ولعل من تطبيقات هذه الحملة الثقافيـة ـ كما أشرنا من قبل ـ ما التجأنا اليه من تكوين قوافل للثقافة تطرق أبواب القرى، حاملة معها بعضا من وسـائل الاعلام كآلات العـرض السينمائى ومجموعات مختـارة من النشرات والكتب المبسطة فتنشد المواطنين فى القرى الى هذا الزاد المتنقل من الثقافة والتربيـة . ومن مظاهر هذه الحملة ايضا تكوين الفرق المسرحية الكثيرة التى تذرع القطر من أوله الى آخره حاملة معها عن طريق الفن صورا معلمـة من واقعنا وتاريخنا وثقافات الشـعوب الأخرى يتلقاها المواطنون فى سهولة وشوق فى اطار من المرح أو الفكاهة أو التسلية .

ومنها أيضا الحرص على بث مراكز الثقافة والاستعلامات التى تعد بمثابة نقط ارتكاز ثابتة لنشر الوعى والثقافة فى أعماق الريف أن تكون المدخل الفعال لتوصيل الثقافة الى أعماق القرى فى الريف وفى بيئات لم تكن تصل اليها أصداء الحركة الثقافية التى اعتـادت أن تسـتقر فى العاصمة فيما مضى .

ومن مظاهر هذه الثورة الثقافيــة أيضــا اشراف الدولة على اخراج ســلاسل الــكتب القوميــة والعالمية بشــكل لم يسبق له مثيل وتقديمها للناس بأسعار فى متنــاول الجميع . بحيث أصبحت القاهرة مركزا للاشعاع الثقافى والأدبى ، فضــلا عن خلق جيل جــديد من المؤلفين والمترجمين فى كافة نواحى المعرفة ...

وهذا الاشراف لا يتضمن بطبيعة الحــال حجرا على منابع الفكر الحر،انما هو يصدر عن ايمان كامل بضرورة ترك هــذه المنــابع على اختلافها تغــذى الرأى العــام وتكون الوعى الثقــافى ، وتعــرض تجــارب الأمم الأخرى والمشاكل التى صادفتها فى التطبيق ووســائل حلها ... وآية ذلك أن هذه السلاســل تضم مؤلفات وآراء لكتاب اشــتراكيين وفلاســفة عاشوا فى مجتمعات رأسمالية كما تعرض نظما سياسية واقتصادية متعارضة وهدفها من وراء ذلك أن تطلق لفكر المواطن العربى عنانه ، حتى يكون التكوين الثقافى تكوينا حرا أصيلا وحتى تتبلور معالمنا الفكرية والثقــافية عن تجــربة

ودراسة بعيدا عن أخطار العـزلة والانغـلاق الفكرى وبعيدا عن خطر التوجيه الثقافى الذى يصل الى حد التسلط الفكرى ، هذا كله عن الهدف الأول من أهداف الخطة الثقافية .

ثانيا :

أما الهـدف الثـانى من أهـداف الخطـة الثقـافية ، فهو تعميق خطوط الثقـافة ورفع مستواها :

وهو هدف يجب الانتباه اليه فى هذه المرحلة بصفة خاصة حتى لا يكون فى توسيع قاعـدة الثقافة ما يوهم بضرورة الهبوط بها الى مستوى العامة من غير المثقفين .

واذا كنا نقول فى مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية اننا لا نريد باشتراكيتنا أن يهبط الاغنيـاء الى مســتوى الفقـراء انما نريدها اشتراكية فى التقدم والرخاء ترتفع بالفقراء الى مستوى الأغنياء ، كمـا قال السيد الرئيس ، فاننا نقول هنا كذلك ، أننـا نريد أن نرتفع بالجماهير الى مستوى ثقافى مشرف ، ولا نريد أن نهبط بالثقافة الى حيث تخلفت الجماهير ..

ان كلمة ((الشعبية)) قد اكتسبت للأسف عند كثير من الناس مدلولا خاطئا مؤداه السذاجة والبساطة والسطحية ، حتى ظنها البعض مقابلا ونقيضا للعلمية والدقة والتعمق ، وليس هذا بطبيعة الحال ما نرمى اليه حينما نأخذ على عاتقنا توسيع قاعدة الثقافة فان النهضات لا تقاس بأبعادها فحسب ، وانما تقاس فى النهاية بعمقها وأصالتها .

وتعميق خطوط الثقافة عندنا يقوم على محاور ثلاثة :

المحور الاول :

الاتقان وجدية العمل الثقافى :

ذلك أن الروح التجارية التى سادت ـ قبل الثورة ـ كثيرا من ميادين العمل الثقافى ، قد جعلت مقدمى هذا الانتاج يختارون أيسر الطرق وأقصرها لتحقيق النفع المادى ، وأقلها حاجة الى الاتقان وبذل الجهد ، فامتلأت سوق الثقافة بمدلولها الواسع بانتاج سطحى هزيل لا يمكن أن يكون معبرا عن روح أمتنا العظيمة ..

والذى نريده فى هذه المرحلــة أن يدرك كل مشارك فى التنمية الثقافية منفردا بنفسه فى ذلك أو عاملا فى جهاز من أجهزة الدولة . أن الكيف مقدم فى الرعاية على الكم، وأن الاتقان مقدم على السرعة والتعجل ، وان الجمــاهير تتطلع اليوم الى زيادة وعيها وخبرتها . وأنهــا أصبحت تضيق بكل انتاج هزيل مرتجل .

ان خلاصة موقفنا من قضية الكم والكيف اننا نؤمن بهما جميعا .. فالكم ضرورى كما ان الكيف ضرورى ... فالكم يعمل على اتساع نطـــاق النشاط الثقافى وبذلك يعاون الكم الكيف ،فاذا اتسعت قاعدة الثقافة ، زادت الثقافة فى منابعها المختلفة ..

كما أن الاجادة والكمال يستكملان بالكم، ويخلق الكم نوابغه فى الثقافة .. ولا يمكن أن يتأتى ذلك اذا كان قطاع الثقافة ضيقا محدودا..

كذلك يمكن أن ننظر الى الكم على أساس أنه يغطى كل مستويات المجتمع .

فهناك ثقافة ضرورية للمثقفين .. وثقـافة ضرورية .. للفلاحين والعمال والجنود اى لجميع قوى الشعب العاملة .

وهكذا يغطى الـكم جميع المسـتويات الثقافية للشعب . وفوق ذلك فان العناية بالكم تجد أساسها فى طبيعة القيم الثورية لمجتمعنا الجديد .

ذلك اننا نعيش الآن فى مجتمع اشتراكى، والثقافة فى هذا المجتمع حق لجميع المواطنين ، كما أنهـا من الاحتيـاجات الأسـاسـية لبناء الاشتراكية بناء سليما ..

ومن هنا تواجهنا ضرورة تنفيذ برنامج واسع النطاق لتثقيف جميع المواطنـين فى مختلف القطاعات على اساس ديمـوقراطى منبثق من الايمان بان كل مواطن له حق فى نصيب عادل من الثقافة على قدر ما له من حق فى نصيب عادل من ثروة وطنه ..

ومادمنا نتحدث عن ضرورة الاتقان والعمل الجدى .. فلابد أن نقرن بهمـا أمانة العمـل وتحـرره من الغـرض والهـوى

ومن المؤسف ان نذكر ـفى هذا المقامـ ان كثيرا من الاجانب والمستشرقين الذين اشتغلوابالكتابة عن حضارتنـــا وتاريخنا قد خضعوا لتوجيـــه استعمارى مغرض .. فكتبوا لنا تاريخنا على صورة تشكك اجيالنا فى امجادها وتراثها وتزيف فى عقولهم كثيرا من وقائع ذلك التاريخ ورجاله وحوادثه .. بل « ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقتــه ، وصور لها الأبطال فى تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغمـــوض ، بينما وضعت هالات التمجيد والاكبار حول الذين خانوا كفاحها » .

ومن هنا كان على ثورتنا الثقافية المعاصرة ان تتدارك هذا الامر وان تعيد كتابة التـــاريخ العربى كله كتابة علمية موضوعية امينة ... ترد قيم الحضارة العربية وتراثهــا ورجالهـــا الى موضعهم الصحيح .. وتبصر العربى المعـــاصر بحقيقته وحقيقة ماضيه وحضارته ...

المحور الثانى :

الدراسة المقارنة والثقافة العالمية :

ذلك أن أمتنا العربية قد اعترفت من أول يوم فى ثورتها، بأنها تعمل فى اطار من التواصل

السياسى والثقافى بين الشعوب وأنها تعترف بالثمرات المبدعة الخلاقة التى انتجتها جهود الناس وعقولهم وقرائحهم فى الشرق والغرب . كما تسلم بالسبق الكبير الذى حققته كثير من تلك الشعوب . ولا يتصور أن ترفض تجارب وثقافات تلك الشعوب بدعوى الوطنية أو التعصب القومى **فان المجتمع الديموقراطى الاشتراكى ، كما قررنا مرارا ، مجتمع حر مفتوح والانغلاق الفكرى والثقافى لا يقل خطرا على تجاربه من الاستعمار والتسلط الاجنبى ..**

واذا كنا نتخذ لانفسنا فى مجال السياسة الدولية شعارى التعايش السلمى والحياد الايجابى ، فان هذه الشعارات لا يمكن أن تؤتى ثمارها الحقيقية الا اذا ساندها تواصل فكرى وثقافى ، وحرص أكيد على تنمية القدر الادنى المشترك من الثقافة والقيم الانسانية بين الشعوب ..

لذلك نهيب بكتابنا والمتخصصين من المثقفين وعامة قرائنا وجمهورنا ، ان يمدوا ابصارهم قليلا الى الثقافات المعاصرة والقديمة وان ينظروا

اليها ويتاملوا فيها بروح معتدلة منصفة ، وعقول متفتحة مستعدة للتجاوب والاستفادة من تجارب الآخرين ..

ولعلهم يذكرون أن الدولة لم يغب عنها هذا فهذه صحافتنا ومجلاتنا تفرد للثقافات الاجنبية صفحات وصفحات ، وهذه اذاعتنا المسموعة تخصص برنامجا كاملا تعرض فيه على المستمعين ألوانا من خلاصة روائع الحضارة والثقافة العالمية . وهذه اذاعتنا المرئية تمزج فى تنسيق مدروس واختيار مدقق واع بين انتاجنا المحلى وبين خير ما قدمته البرامج المرئية فى الدول الاجنبية . وهذه سلاسل الكتب الثقافية تضع بين يدى القارىء ـ المتخصص وغير المتخصص على حد سواء ـ كنوزا رفيعة من خلاصة الفكر العالمى ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وذلك كله أخذا بسياسة النوافذ المفتوحة ، وسبقا لتوكيد معنى الوحدة الانسانية فى ميدان الثورة الثقافية .

المحور الثالث :

الشخصية العربية يجب ان تكون محور ثقافتنـــا الخاصة :

وأساس ذلك أن الاســتفادة من الثقــافة العالمية لا يعنى أن نفقد كيانا الذاتى بين المذاهب والافكار الأجنبية ، فان أساس ثورتنا أننا نريد أن نكون صناعا للتاريخ لا موضوعا يتحدث عنه ذلك التاريخ .

والذى لاشك فيه أن للأمة العربية مبادئها ومثلها الخاصة، ومزاجها الذاتى الاصيل، واسلوبها المتميز فى تقييم النــاس والعــلاقات ، ونحن العرب نؤمن بان لنا دورا حضاريا يقـــوم على اشاعة هذه المثل ونشر تلك المبادىء والقيــم . ولا يمكن أن يتحقق لنا شيء من ذلك اذا فقــدنا انفسنا فى سوق الافكار والثقافات. بل ان اذابة الشخصية العربيــة ، وتمييع مقوماتها ، ليعتبر من هذه الزاوية جريمة فى حق البشرية كلها . لأنه يحرمها من الاستفادة بالجديد الذى تستطيع الامة العربية أن تقدمه للناس، كما سبق ان قدمته من قبل وظهرت آثاره على اوروبا وحضارتها فى اوائل عصر النهضة .

والواقع ان الحديث عن هذا المحور يثير مناقشة لا نرى بدا من التصدى لها فى صراحة ووضوح. فان بعض المفكرين يتصور الحديث عن الشخصية العربية ، والتقيد بالمثل العربية . نوعا من المحافظة والجمود ، لا موضع لهما فى مجتمع تقوم ثورته كلها على التحرر والانطلاق . ويدعمون رأيهم بقولهم ان المنهج العلمى يقتضى ان تكون التجربة المستمدة من الواقع اساسا للثورة فى ميادينها كلها. ويرون لذلك فى الحديث عن ـ المبادىء والقيم والتراث ـ تحفظا على الروح الثورية لا مبرر له .

ونحن نخالفهم فى ذلك تماما فان للواقع والتجربة مجالهما وللمبادىء والقيم مجالهما الاصيل . ولو اننا اقمنا ثورتنا على التحلل المطلق من مبادئنا وقيمنا لاستبحنا لانفسنا فى ميدان السياسة والحكم والاقتصاد ما يستبيحه غيرنا ، ولفقدنا بذلك المدلول الاخلاقى الاصيل لثورتنا العربية ، وهو مدلول حرصنا عليه فى كل المواقف وتحملنا فى شجاعة ما القاه علينا من تضحيات وتكاليف .

اننا امة ذات معالم ، لها مثلها ومبادئها وفضائلها التى تضحى من اجلها حتى بالحياة . وهى لذلك تفرق فى اصرار بين التحرر والتحلل،

تفـــــرق بين الانطـــــلاق والضـــــياع .

فالتحرر والانطلاق هما من اول اساليبها الثورية على حين ان التحلل والضياع لا يقلان خطورة على أهداف ثورتنا من الرجعية والجمود .

فنحن على سبيل المثال امة مؤمنة بالله ..وبالقيم الروحية فلا يتصور ولا يقبل ان نغمر اسواقنا بانتاج ثقافى يتجاهل هذه الحقيقة الـكبرى او يصادمها فى جذورها .. فمثل هذا الانتـــاج لا يمكن ان يوصف الا بانه اتجاه ((منعزل)) عن واقع الشعب وعقيدة الجماهير مسمم باصــول فكرية اجنبية ، تحاول التسلل الى كياننا القومى لتحطم أعز وأغلى قيمنا ومعالم شخصيتنا ..

ونحن أيضا أصحاب حضارات تؤمن بالانسان وتكرمه .. وتجعل رعايته ــ وتكريمه أساســا لكل نظمها ، كما أوضحنا ذلك من قبل . ولذلك كان لا بد أن تجيء ثورتنا الثقافية عاكسة لهذا الطابع الانسانى فى اشتراكيتنا وفى غيرها من معالم حضارتنا الجديدة ...

وترجمة ذلك كله باسلوب عملى، تقتضى أن يجيء انتاجنا الثقافى فى صوره كلها محافظا على

القيم الأصيلة الكبرى للحضارة العربية ، حريصا على توكيد الفضائل التى تميزت بها حياتنا العامة والخاصة متحرزا عن الاندفاع الى محاكاة الحياة الأجنبية فى سقطاتها ومواطن الضعف فيها ، مدركا فى ذلك كله أن الانتاج الثقافى يجب أن يكون مزيجا متوازنا من التعبير عن واقع الجماهير وحياتها ، ومن الحرص على توجيه تلك الجماهير لتوكيد قيمها واهدافها الأصيلة .



حقيقة كبرى
عن الثقافة العربية

وفى هذا الضوء نستطيع أن ننظر الى حقيقة هامة كادت تضيع وسط الجمود والتخلف اللذين فرضتهما على الأمة العربية عهود التسلط العثمانى ـ والسيطرة الاستعمارية الغربية. هذه الحقيقة هى أن الأمة العربية لها ثقافتها الاصيلة النابعة من البيئة العربية. وقد ازدهرت هذه الثقافة مع ازدهار الحضارة العربية على مدى قرون عديدة ...

ومن الثابت تاريخيا أن محاولات الحكم العثمانى لابادة الثقافة العربية ومحاولات الحكم الاستعمارى الغربى لاذابة هذه الثقافة وسط تيار الثقافة الغربية ، قد باءت كلها بالفشل لأسباب من أهمها : أصالة الثقافة العربية نفسها ، واستنادها الى قيم عظيمة افتقدها الحكم العثمانى وافتقرت اليها الحضارة الغربية ..

وفى جزء من اجزاء الوطن العربى ، كالجزائر مثلا ، لم تستطع مائة وثلاثون عاما من الاحتـلال الفرنسى ان تبلغ هدفا رئيسيا وضعه الاستعمار الفرنسى نصب عينيه منـذ وطات اقدامه ارض الجزائر وهو القضاء على عروبتها واذابة ثقافتها العربية فى خضم الثقافة الفرنسية .

بل لقد اعتمد الاستعمار الفرنسى أساسـا فى محاولتـه بلوغ هذا الهـدف على أسـلوب خطير هو القضاء أولا على أهم ما يربط الجزائر بالثقافة والحضارة العربية عن طريق القضاء على اللغة العربية قضاء تاما وتحويل الشعب الجزائرى الى مجموعة ناطقة بالفرنسـية ضـمانا لاذابة كيانه فى الكيان الفرنسى وتأكيدا لما ضمنته فرنسا دستورها من أن الارض الجزائرية ، جزء لا يتجزأ من الأرض الفرنسية الأم.

لكن أصالة الثقافة العربية قد حطمت على أرض الجزائر كل ما شيده دهاء الاستعماريين الفرنسيين خلال عشرات السنين . وفى أقل من من عام واحد عقب اعلان الاستقلال ، اندفع الشعب الجزائرى فى حماس رائع فى حملة من

أجل التعريب والعودة الى الثقافة العربية التى توهم الاستعمار الفرنسى أنه انتهى من أمرها فى الجزائر الى الأبد ...

وهكذا تقدم الثقافة العربية الدليل العملى على أن قرونا من التسلط الأجنبى ـ عثمانيا كان أو غربيا ـ لم تستطع أن تقتلع الجذور العميقة لهذه الثقافة العريقة وأنه اذا كان قد أمكن فى بعض الأحيان للقوى المستعمرة الدخيلة أن تشيع نوعا من الذبول فى أغصان الثقافة العربية وازدهارها ، فان جذورها الأصيلة الضاربة فى أعماق التربة العربية عادت تمنح الحياة الخصبة الخلاقة ، وتتيح للثقافة العربية فرصا جديدة غير محدودة لتأكيد حيويتها وفاعليتها وقدرتها على صنع المزيد من القيم الثقافية المعبرة عن الشخصية العربية والمنبثقة من بيئتنا وشخصيتنا الحقيقية،ولتحطم فى الوقت نفسه تلك النماذج المشوهة من الثقافة الاستعمارية التى أقامها الدخيل فى أرض الوطن العربى .

على أن هذا لا يعنى أننا ننكر الثقافة الأجنبية أو نحاول التقليل من شأنها ، فالثقافة الغربية مثلا لها مجالات انتاجها وابداعها المنبعث من صميم الشخصية والحضارة الغربية . كذلك فاننا لا نستهدف شن حملة من حملات التعصب ضد تذوق هذه الثقافة أو الاستمتاع بها ، ولكن الذى ننكره هو أن تكون الثقافة فى رأى البعض هى مجرد ترجمة الاعمال الادبية الاجنبية ، أو أن تقدم مسارحنا مسرحيات غربية أو شرقية بألفاظ عربية، أو أن نستمع الى روائع الموسيقى الأجنبية. ان المسألة هى : كيف نعمل من أجل ابداع ثقافة خاصة بنا وفى الاطار الانسانى الذى نعيش فيه ..

ان ثقافتنا ينبغى أن تكون ثقافة قومية ولغتنا العربية ينبغى أن تحتل المكان الأول. ونحن فى هذا انما نحرص على أن تكون لنا ثقافتنا المتميزة المعبرة عن قيمنا وتراثنا وعن حاضرنا ومستقبلنا . ولابد أن يكون واضحا تماما أن أى اتجاه ضد استخدام لغتنا العربية

واحلالها فى المكان الأول انمـا هـو اتجـاه استعمارى مغرض وان مثل هذا الاتجاه ــ وان كان يبدو فى ظاهره أحيانا انه لا يصدر الا عن عجز فى تقدير أصالة لغتنا العربيـة وثرائهـا وكفايتها فى مواجهة كافة الاحتياجات فى مجالات العلم والثقافة ، الا أنه فى الحقيقة يمثل احتقارا للقيم الوطنية والقومية ذاتها ..

ان جميع الفرص يجب أن تتاح أمام لغتنا العربية لكى تؤثر فى الثقافة العالمية وتتأثر بها، وفى هذا المجال تعتبر ترجمة الانتاج الثقـافى وسيلة هامة سواء فى ذلك ترجمـة الـكتب والمؤلفات العالمية الى اللغة العربية أو ترجمـة روائع ثقافتنا وأدبنا وفكرنا العربى الى اللغات الاجنبية . كذلك ينبغى العمل على توفير فرص التبادل الثقافى بين الأمة العربية وغيرها من الامم فان هذا كفيل بايجاد تفاعل مثمـر بين مختلف الثقافات العالمية وهو فى الوقت نفسه يتيح مزيدا من فرص الالتقاء والتفاهم بين الشعوب ويساهم بدور كبير فى امكانيات تدعيم السلام العالمى ..

***

الأساس العلمى للخطة الثقافية

واذا كانت ثقافتنا القومية تزدهر اليوم فى ظل مرحلة ثورية تشمل مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فان الطابع الثورى لا يمكن ان ينفصل فى مثل هذه الظروف عن ثقافتنا القومية . ان مجتمعنا الاشتراكى الجديد يعمل الآن من أجل ارساء دعائم ثقافة اشتراكية ويتيح كل الفرص أمام اشتراكية الثقافة .

وثقافتنا الاشتراكية ينبغى ان تكون فى خدمة هذا المجتمع وأن تعمل على تحرير المواطنين من كافة الرواسب التى ورثناها عن عهود تحكم الرجعية والاستعمار .

كذلك فان ثقافتنا يجب أن تبنى على أسس علمية فى التفكير والتطبيق وأن تنتشر انتشارا عاما منظما على كافة المستويات مستخدمة كل الوسائل التى تلائم هذه المستويات . وفى هذا المجال نجد من ألزم الأمور العمل على ايجاد

المستوى الثقافى اللائق بين جماهير الفلاحين والعمال من أبناء الامة العربية باعتبارهم الفئات التى قاست من الجهل والحرمان اللذين فرضتهما السيطرة الاستعمارية والرجعية سنوات وسنوات . ان القيام بهذا الواجب ازاء جماهير العمال والفلاحين فضلا عما فيه من عدل ، فانه كفيل فى الوقت نفسه بتنمية روح المسئولية لدى العامل والفلاح ، وحافز لهما على العمل الجاد المخلص فى بناء هذا الوطن وبلوغ أهدافه فى الكفاية والعدل .

ولكى تقوم الخدمة الثقافية على أساس سليم يجب أن تجرى الأبحاث العلمية لتقدير الاحتياجات الثقافية للشعب ، أى أن يكون هناك منهج للمسح الثقافى يتيح تقدير الاحتياجات وتحديد الأولويات .

واذا كانت ظروف ثقافتنا القومية والنتائج التى تحققت فى هذه الفترة من تاريخنا الثقافى قد أثبتت أن شعار «الثقافة للشعب كما وكيفا» شعار حيوى فى بناء اشتراكية الثقافة ، فانهذا

الشعار نفسه يملى علينا أن نفتح أعيننـــا على المستقبل القريب والبعيد ، وأن ندرس بمنتهى العناية ما يمكن انجازه من مشروعات ثقافية تلبى الاحتياجات الثقافية لهذا الجيل والأجيال القادمة .

وعن طريق الدراسة ، وعن طريق المواجهة الواعية لهذه القضية سنجد أنفسنا فى الواقع أمام علم جديد يمكننا ان نطلق عليه اسم «علم الاجتماع الثقافى» .

وكمـــا ان الاقتصــــــاد يرتبط بالمجتمع وبالسياسة كذلك نجد لعلم الاجتماع صـــلة وثيقة متخصصة بالحياة الثقافية للمجتمع تسمح بأن يكون هناك فرع من علم الاجتماع أو علم قائم بذاته ، يختص بالدراسة الاجتماعيـــة فى الاطار الثقافى أو بالثقافة فى اطار الاجتماع .

وأولى وظائف هذه الدراسة بالنسبة لنا أن نستقصى عمليـــة التطور الثقـــافى فى بلادنا مع مقارنتها بالمراحل المـــاثلة فى البـــلاد الأخرى

وعلى أساس من هذه الدراسة العلميــة ، يمكننا أن نقيم اجهزة للتخطيط والتنبؤ الثقافى تعمل جنبا الى جنب ، وبالتعــاون مع الأجهزة التنفيذية للعمــل التثقيفى ، الذى ينبغى كما اسلفنا ، أن ينشر على أوسع نطاق وباقصى سرعة ليصل الى جميع القطاعات والمستويات ويتفاعل معها تفاعلا ايجابيا .

***

كلمة الى رجال الثقافة والاعلام

احب أن انبه فى ختام هذا المقال الى أننا لانخوض معركة سياسية واقتصادية فحسب ، وانما نحن ندخل كذلك معركة المبادىء والأخلاق والمثل ، وعلى كل مشتغل بالثقافة والاعلام سواء كان مؤلفا أو كاتبا فى صحيفة او ممثلا فى مسرح او عاملا فى اى حقل آخر من حقول الثقافة والفنون ، أن يدرك انه مرموق من الجماهير وأن خلقه وسلوكه محسوبان عليه ومؤثران حتما فى نظرة الناس اليه ، واستعدادهم للتلقى عنه ، وانه يجب لذلك أن يكون فى علاقاته العامة والخاصة عنوانا على المبادىء والمثل ،التى ندخل جميعا معركة الثقافة لتوكيدها ونشرها .

ولا يتصور فى مجتمع اشتراكى انسانى مؤمن بالله كمجتمعنا ، أن ينفصل فيه العلم عن الخلق ، أو الثقافة عن الخلق ، أو الفن عن الخلق ..

فان عزلة الثقافة عن الخلق ، لا تقل خطرا عن عزلة الثقافة عن الناس ..

كما احب أن يذكر المشتغل بالثقافة او الاعلام انه داعية وموجه قبل أن يكون صاحب حرفة،

ومن مقومات الداعية ان تكون روحه شفافة .. وخلقه محببا .. وأن يجذب الناس الى ما يقدمه من ثقافة،بخلقه وشخصيته،قبل أن يجذبهم بعلمه وفنه .. والجماهير لم تعد تحتمل أن يتعالى عليها أحد..أو يغلظ لها أحد.والله تعالى يؤدب رسوله بهذا الأدب ، ويشهد له بفضيلة الخلق ولين الجانب ، فيقول له : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

واخيرا ليذكر العاملون فى هذه القطاعات أن عملهم جزء من خطة البناء الشاملة التى يسير فى ظلها العمل الثورى .

والذى أطلبه من نفسى،ومن كل مثقف فى بلدى أن يكون مخلصا من اعماق قلبه لهذا البناء ،مدركا لحق امته عليه ، متفانيا لذلك فى أداء عمله فى هدوء وتواضع ودأب ، شأن اصحاب المثل والرسالات . حتى نرتفع جميعا الى مستوى الدور التاريخى الذى تؤديه أمتنا العربية فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا .

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

الثمن ٢ ص